

السياق وأثره في النص القرآني - سورة الحج أنموذجا -

الباحثة: نورة بقرني
جامعة الجزائر 2

ملخص :

يعدّ السياق من المحاور الأساسية في علم الدلالة ، فقد حظي بقدر من الاهتمام في الفكر اللغوي الغربي - نظرا لأهميته الكبرى وقدرته الهائلة في توجيه هذا العلم - عند العديد من العلماء في نظرية دُعيت بالمنهج السياقي تزعمها العالم الإنجليزي " فيرث " الذي كان يرى هو وأتباعه الفيرثيون الجدد أنّ الكلمة المفردة لا ينكشف معناها إلا إذا وضعت أو سيقّت في تراكيب لغوية .
الكلمات المفتاحية: السياق ، السياق اللغوي، سياق المقام أو الحال ،النص القرآني .

Abstract

Context is a very important element in linguistics.it acquired a necessity in West linguistic thought. It flourished among a lot of scientists in a theory called § Context methodology § . it Was developed by an English scientist called §Firth § .For bim the single word does not appeared just when it is put on a linguistic form.

Key words : Context , linguistic context,Context of Situation,The Quoran Text.

مقدمة:

إنّ عملية البحث عن التماسك النصي يستدعي بالضرورة الرجوع إلى عناصر لغوية (مقالية) وأخرى غير لغوية (مقامية) ، وهذا مما يؤكّد على الأهمية الكبرى للعلاقة بين النص والسياق ، فكل منهما يتمّ الآخر . حيث أنّ فهم النص وتفسيره لا يتأتى إلا بالرجوع إلى السياق ، لذا لا يمكن أن نستغني عنه حتى لا تصبح قناة التواصل متوترة ، وعليه فإنّه يلعب دورا فعالا في تواصلية الخطاب وانسجامه.

1- مفهوم السياق:

1-1 - المفهوم المعجمي للسياق:

يقول **ابن منظور** في مادة (س و ق): "...وساق الإبل... وتساوقت تساوقا إذا تتابعت... ويقال ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية." ¹
وفي أساس البلاغة للزمخشري مادة (س و ق)، "...وقدم عليك بنو فلان فأقدتهم خيلا وأسقتهم إبلًا، ... وتساوقت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق..."¹.

يتبين من خلال ماقدّمه كل من **ابن منظور** و**الزمخشري** أنّ السياق بمعنى التتابع والسير والانتظام دون أن يكون هناك انفصال أو انقطاع .
هذا عن معنى السياق في المعاجم العربية، أمّا في المعاجم الغربية فقد عرّفه **رمزي منير البعلبكي (Ramzi Munir Baal Baki)** أنّه: "ما يسبق العنصر اللغوي أو يليه في كلام أو نصّ، سواء أكان صوتاً أم كلمة أم جملة"².
وفي قاموس اللسانيات ل**جون ديبيوا «Jean Dubois»** يُقصد به: "الوحدات التي تسبق والتي تلتق وحدة معيّنة"³. والملاحظ في المعاجم الغربية أنّها أضافت معاني لم توردتها المعاجم العربية، وهي أنّه لا يجوز بتر الكلمة عن سياقها، بل لابدّ من مراعاة مايسبقها وما يليها من عناصر لغوية تحدّد مفهومها.

1-2 – المفهوم الاصطلاحي للسياق :

أ - السياق في الدراسات العربية القديمة :

تنبّه العلماء العرب القدامى إلى مصطلح السياق وأهميته في دراساتهم، فقد اصطالحوا عليه بمصطلحات أخرى تحمل معناه وهي الحال والموقف والمقام من خلال قولهم (لكل مقام مقال)، (ومطابقة الكلام لمقتضى الحال)، فهذان العبارتان تكرّرتا عند الكثير منهم أمثال **الجاحظ** و**السكاكي** و**ابن جني** و**ابن قتيبة** و**الجرجاني** وغيرهم، وهذا إن دلّ إنّما يدلّ على أنّ نظرية السياق متّصلة عند علماء العربية القدماء الذين أقرّوا بأهمية العلاقة الموجودة بين المقام والمقال من أجل الوصول إلى الفهم الصحيح الذي يقوم على أساسه التواصل وأكّدوا على نوعيه المقامي والمقال.

¹ الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد)، "أساس البلاغة"، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط1 (1419هـ - 1998م)، ص 484.

² Ramzi Munir Baal Baki, «Dictionnaire OF Linguistic», Terms Dar el -Ilm Lilmalayin, Bierut, 1990, P 119

³ Jean Dubois et autre, «Dictionnaire de linguistique», 1989, P 120.

فالسكاكي يتحدث عن ذلك قائلا: " ... إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام."¹
أما **الجاحظ** فيقول: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما."²
فبلاغة الكلام مناسبة للحال والمقام، ومطابقتها لما يقتضيه حال المتكلمين والمستمعين.

هذا عن سياق الحال، أما عن السياق اللغوي فكانت عنايتهم قائمة به من خلال دراسة النظم، وهذا ما بينه **عبد القاهر الجرجاني** في كتابه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" فهو يرى في الغالب أن السياق اللغوي يلعب دورا كبيرا في تحديد دلالة الكلمة وقيمتها.

ب - السياق في الدراسات اللغوية الغربية :

يستعمل لفظ "السياق" مقابلا للمصطلح الإنجليزي (Context) الذي يطلق ويراد به كل ما يقصده المتكلم من إيراد كلامه، وهو عنصر مهم تستند عليه اللسانيات التداولية.

فهو عند "سبرير" و "ولسن": "جزء صغير من المحيط المعرفي لفرد ما في لحظة ما ، فهو لذلك ليس أمرا معطى دفعة واحدة ، إنما يتشكل قولاً إثر قول . يتشكل السياق من المقدمات المنطقية انطلاقاً من مصادر شتى كالمعارف الموسوعية وإدراك المقام وتأويل الأقوال السابقة."³
فالسياق عندهما مجموعة من الفرضيات التي تتشكل في ذهن المتلقي حول العالم.

أما عن **هاليداي ورقية حسن** في حديثهما عن السياق يقولان: "تعني كلمة "المقام" التي يقصد بها سياق المقام، كل العوامل غير اللغوية التي تؤثر في النص نفسه"⁴.

فالنص له ارتباط وثيق بالسياقات الداخلية والخارجية والمشاركة مع مجموعة من الآليات التي تساهم في تحقيق نصيته. وقد أكد **فيرث (Firth)**

1- السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، ص 265.

2- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، مصر، ج1، ط7 (1998 م)، ص 88.

3- أن رويول جاك موشلار، التداولية اليوم "علم جديد في التواصل"، ترجمة سيف الدين دغفوس، د- محمد الشيباني، المنطقة العربية للترجمة، بيروت ط1 - 2003، ص 77 - 87.

4- M.A.K. Halliday and Ruquaiya Hassan, p 21.

على أهميتها موضحا دوره في قوله: "... معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها." ¹ فالسياق يعمل على تحديد معاني الكلمات التي بدورها تعمل على توضيح دلالة الجمل وهذا يقودنا إلى إحداث الانسجام.

كما تحدث "براون" و"بول" (Brown et Yule) أيضا على دوره الفعال في تأويل وفهم وتفسير النص/الخطاب، فهو يتشكل لديهما من المتكلم والمستمع والزمان والمكان ². وتكمن أهميته عند فان دايك أيضا في كونه: "يحصّر التأويلات الممكنة ويدعم التأويل المقصود" ³. أي السياق يساهم في تواصلية الخطاب وانسجامه.

2- نماذج تطبيقية للسياق حول سورة الحج :

2- 1 - السياق وأثره في توجيه دلالة المشترك اللفظي :

عرّف أحمد مختار المشترك اللفظي بأنّه:

"اللفظ الواحد الدال على أكثر من معنى." ⁴. وهذا الأخير شغل الكثير من الباحثين قديما وما يزال يشغلهم حديثا. كونه من ظواهر اللغة العربية، الذي يتدخل السياق في تفسيرها. وحيث أنّ القرآن عربي فقد اشتغل كثير من المفسّرين باستخراج المشترك اللفظي، فقد سجّلوا لكثير من الكلمات أكثر من معنى دلالي بحسب السياق الذي وردت فيه. فمن بين الكلمات التي وردت في سورة الحج والتي تحمل أكثر من معنى نذكر:

1. فتنة: ولها في كتاب الوجوه والنظائر كما يذكر

هارون بن موسى عشرة وجوه هي: "الشرك ، الكفر ، البلاء ، العذاب في الدنيا ، الحرق بالنار ، القتل ، الصدّ، الضلالة، المعذرة، العبرة" ⁵. وورد هذا اللفظ في سورة الحج مرتين ، وقد اشتمل عند المفسّرين على المعاني التالية ، بحسب السياق اللغوي للنص الكريم منها:

1- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، جامعة القاهرة، ط 1 (1998م)، ص 68 – 69.
 2- براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطني و: د. منير التريكي، جامعة الملك سعود – الرياض، (1418 – 1997)، ص 45.
 3- فان دايك، العلاماتية وعلم النص، ترجمة منذر عياشي، المغرب، ط 1، 2004، ص 141.
 4 أحمد مختار عمر، "علم الدلالة"، مرجع سابق، ص 145.
 5 هارون بن موسى، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، دائرة الآثار والتراث، (1409 هـ - 1988م)، ص 78.

أ - البلاء: نحو قوله تعالى: "وإن أصابته فتنة فقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة"¹. يقول ابن كثير: "والفتنة "البلاء" أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة"².

ونظيرها ما جاء في سورة العنكبوت، قوله تعالى: " أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون"³. يقول هارون بن موسى: "يعني وهم لا يبتلون في إيمانهم"⁴.

ب - الشرك: نحو قوله تعالى: " ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض"⁵. يقول ابن كثير: "أي شك وشرك وكفر ونفاق"⁶. ونظيرها ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: "والفتنة أشد من القتل"⁷. يقول هارون بن موسى: "يعني بها الشرك أعظم جرماً عند الله من القتل في الشهر الحرام"⁸.

2. أمة: يقول هارون بن موسى أن لها ثمانية وجوه في كتاب الوجوه والنظائر وهي: "عصب، ملة، سنين، قوم، الإمام، الأمم الخالية، أمة محمد صلى الله عليه وسلم المسلمين خاصة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم الكفار خاصة"⁹.
ورود هذا اللفظ في سورة الحج مرتين أيضاً، وقد اشتمل على المعاني الآتية:

¹ الحج [11].

² ابن كثير الدمشقي "الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر"، "تفسير القرآن الكريم"، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، ط1، (1419 هـ - 1998 م)، ص 352.

³ العنكبوت [02].

⁴ هارون بن موسى، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

⁵ الحج [53].

⁶ ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، مرجع سابق، ص 390.

⁷ البقرة [191].

⁸ هارون بن موسى، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

⁹ المرجع نفسه، ص 64.

أ. **الأمم الخالية:** نحو قوله تعالى: **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**¹. يقول **الرازبي:** "فالمعنى شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة"². ونظيرها ما جاء في سورة يونس قوله تعالى: **"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ"**³. يقول **هارون بن موسى:** "يعني الأمم الخالية"⁴.

ب - القوم:

نحو قوله تعالى: **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَارِ عُنْكَ فِي الْأَمْرِ** وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم"⁵. يقول **ابن كثير:** "يخبر الله تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا"⁶. ونظيرها في سورة النحل نحو قوله تعالى: **"أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ"**⁷. يقول **هارون بن موسى:** "يعني أن يكون قوم أكرم من قوم"⁸.

هذا عن سياق المقال أما عن سياق الحال فسنفق على أبرز جوانبه في كتب التفسير وأكثرها حضورا فيه والتمثلة في "أسباب النزول"، و التي يُعنى بها مختلف الظروف والملابسات التي تتعلق بنزول الآيات القرآنية. ولفهم معانيها المقصودة يستدعي معرفة وإدراك أسباب النزول سواء أكانت خاصة أو عامة.

1 - أسباب النزول الخاصة: وهي الحادثة التي وقعت للرَسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أو غيره سواء أكانت سؤالا أم استفسارا موجها إليه ،فمنها ما ذكره "ابن كثير" في تفسيره عن الكفار الذين سألوه عن وقوع العذاب في قوله: "حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه"⁹، فنزلت الآية الكريمة

¹ الحج [34].

² الرازي فخر الدين "ابن العلامة ضياء الدين عمر"، "التفسير الكبير و مفاتيح الغيب"، دار الفكر للطباعة والنشر، ج23، ط1(1401هـ - 1981م) ، ص 35.

³ يونس [47].

⁴ هارون بن موسى، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 65.

⁵ الحج [68].

⁶ ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، مرجع سابق، ص 395.

⁷ النحل [92].

⁸ هارون بن موسى، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

⁹ ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، مرجع سابق، ص 387.

في قوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ"¹، أي إنّما أرسلني الله إليكم نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إليّ من حسابكم من شيء.

2 - أسباب النزول العامة : وهي المعتقدات والعادات التي عرفت عن العرب وسواهم، ومنها ما عرف عنهم قبل مجيء الإسلام عدم ذكر البسمة عند التّحر أو الذّبح إلى أن نزلت الآية الكريمة **في قوله تعالى:** "وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا"².

يقول الرّازي في ذلك: "أمّا قوله "فاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا" ، ففيه حذف أي: اذكروا اسم الله على نحرها. قال المفسّرون: هو أن يقال عند النّحر أو الذّبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك"³.

وإذا كان علينا رصد نتائج هذا البحث فإننا نقول إنّ السّياق في النّص القرآني يبرز المعنى المراد من الكلمة القرآنية ، وي طرح المعاني غير المرادة من المشترك اللفظي ، كما أنّ أسباب النّزول تساعد في تحديد المعنى... وبالتالي السّياق يكشف عن معنى النّص القرآني. ويساهم كثيرا في تحقيق تماسكه .

¹ الحج [49].

² الحج [36].

³ الرّازي ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، مرجع سابق ، ج2، ص37.